الوصايا الأربع في سورة القصص

دراسة قضية، أو مشروع بحث هيكل (ج)

إعداد

ترنيم هشام محمد زيدان

إشراف

د/ السيد سيد أحمد نجم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

وكيل كلية العلوم الإسلامية ونائب رئيس قسم القرآن الكريم وعلومه

قسم التفسير وعلوم القرآن

كلية العلوم الاسلامية

جامعة المدينة العالمية – ماليزيا

(١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م)

شكر وتقدير

أقدم شكري لكل من ساهم وساعدني في إعداد هذا البحث، وأخص منهم مشرفي الفاضل، لما كان لتوجيهاته من الأثر البالغ في إثراء بحثي، فجزاه الله عني خير الجزاء.

والله أسأل أن يعيننا ويوفقنا لما يحب ويرضى....

مقدمـــــــة

إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأتوب إليه، وأعوذ بالله من شرور نفسي، ومن سيئات أعمالي، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد،، فإن من إكرام الله عز وجل لنا أن حبانا بهذا الدين الحنيف، ويسر لنا شرائعه وأحكامه، وأرسل لنا رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين لنا ما نُزِّل إلينا، ويعلمنا ديننا، وقد قام عليه الصلاة والسلام بمهمته خير قيام، فبَيَّن أحكام الشريعة، وفَصَّلها على أتم ما يكون التفصيل، وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

أنزل الله القرآن الكريم ليكون نبراسا للمؤمنين، ينير لهم حياتهم، ويمهد لهم طريقهم، وأوجب عليهم تدبر آياته والتفكر فيها، وأخذ العظات والعِبَر منها، لذا وقع اختياري على آية من آيات كتاب الله العزيز، لأتبحر في معانيها وأنهل من معينها، وهي إحدى آيات سورة القصص، وردت في خطاب قوم الطاغية قارون له، وهم يوصونه بوصايا تكتب بماء الذهب، حيث إنه بغى وتجبر عليهم بما رزقه الله من عنده.

بدأت بحثي بذكر أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة، ثم عرجت على الوصايا أتفيأ من ظلالها الوارفة، وأحاول الوقوف على ما أُثر عن السلف الصالح فيها.

ثم ذيلته بقائمة المصادر والمراجع التي استعنت بها، وختمته بفهرس لموضوعاته.

وأرجو من العلي القدير أن يلهمني الصواب فيما أكتبه، وأن يريني الحق حقا ويرزقني اتباعه، وأن يريني الباطل باطلا ويرزقني اجتنابه، أنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول:

تفسير الآية وما ورد فيها...

قال تعالى {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٧٧]

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية "قوله تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي. قوله تعالى: (ولا تنس نصيبك من الدنيا) اختلف فيه، فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملا صالحا في دنياك، إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة، قاله ابن عطية. قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا وعن الحسن: قدم الفضل، وأمسك ما يبلغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف. وقيل: أراد بنصيبه الكفن. فهذا وعظ متصل، كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن... قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا.

(وأحسن كما أحسن الله إليك) أي أطع الله واعبده كما أنعم عليك.

ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه) وقيل: هو أمر بصلة المساكين. قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع (ولا تبغ الفساد في الأرض) أي لا تعمل بالمعاصي (إن الله لا يحب المفسدين)"[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٣١٤/١٣).

وورد في تفسير البغوي رحمه الله "ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله، ولا تنس نصيبك من الدنيا، قال مجاهد وابن زيد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة. وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم، وقال علي: لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة.

قال الحسن: أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه، قال منصور بن زاذان في قوله: ولا تنس نصيبك من الدنيا قال قوتك وقوت أهلك، وأحسن كما أحسن الله إليك، أي أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته وقيل: أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك، ولا تبغ، ولا تطلب، الفساد في الأرض، وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين." [1]

وفسرها ابن كثير بقوله "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، فآت كل ذي حق حقه وأحسن كما أحسن الله إليك أي أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ولا تبغ الفساد في الأرض أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله إن الله لا يحب المفسدين"[2]

وقال الامام السعدي رحمه الله "{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ} أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، {وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعا، بل أنفق لآخرتك،

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، (٣/٥٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٦/٢٢٨).

واستمتع بدنياك استمتاعا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، {وَأَحْسِنْ} إلى عباد الله {كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} بهذه الأموال، {وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ} بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة." [1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، (٦٢٣).

المبحث الثاني:

في ظلال الآية...

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الوصية الأولى.

المطلب الثاني: الوصية الثانية.

المطلب الثالث: الوصية الثالثة.

المطلب الرابع: الوصية الرابعة.

المطلب الأول: الوصية الأولى

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ}

ذكر صاحب القاموس المحيط في معنى (ابتغي): بغيته أبغيه بغاء وبغى وبغية، بِضَمِّهِن: طلبته، كابتغيته وتبغيته واستبغيته. والباغي: الطالب[1].

وكما سبق فإن تفسيرها هو اطلب فيما أعطاك الله الآخرة، وهي عامة في كل ما يرزقه الله تعالى للعبد، من القوة والعقل والمال وغير ذلك، ووردت هنا في خطاب قوم قارون له بالإنفاق مما آتاه الله في سبيله، لما في ذلك من شكر نعمة الله بالرزق، وقد وردت آيات وأحاديث كثير تحث على الانفاق في سبيل الله، منها قوله تعالى:

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢]

و {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]

و {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} [إبراهيم: ٣١].

وأيضا ورد في السنة النبوية الشريفة ما يحث على بذل المال والجود وبيان فضلها، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر:

(١) القاموس المحيط، (١٢٦٣).

اللهم أعط ممسكا تلفا"[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام "من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل"[2].

وفي فضل الانفاق في سبيل الله يقول ابن القيم رحمه الله "قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: ١١] ، فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوّعت له نفسه بذله وسهل عليه إخراجه.

فإن علم أن المستقرض ملى وفى محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاءٌ كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سبحانه سماه قرضاً، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقرض استدعاه لمعاملته، وليعرف مقدار الربح فهو الذى أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عن ما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاءَ هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً، وذلك يجمع أموراً ثلاثة: أحدها أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه. الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاءَ مرضاة الله. الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذى. فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ. "[3].

(١) صحيح البخاري برقم: (١٢٦٣).

(٢) صحيح البخاري برقم: (١٤١٠).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، (٣٦٣).

ومن مظاهر الانفاق في سبيل الله:

١. بناء المساجد: قال – تعالى –: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال صلى الله عليه وسلم "مَن بنى مسجدًا – قال بكير: حسبتُ أنه قال – يبتغى به وجهَ الله، بنى اللهُ له مثلَه في الجنة"(١).

٢. بناء المدارس الإسلامية، وكفالة الدعاة والمدرسين والأئمة: قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وهذا من الجهاد في سبيل الله؛ قال سبحانه: ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

٣. كفالة الأيتام: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة"(٢).

٤. الجهاد في سبيل الله: عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا "(٣).

٥. إفطار الصائمين: قال صلى الله عليه وسلم: "مَن فطَّر صائمًا، كان له مثل أجره، غيرَ أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا".

(١) صحيح البخاري برقم: (٤٥٠).

(٢) صحيح مسلم برقم: (٢٩٨٣).

(٣) صحيح البخاري برقم: (٢٨٤٣).

المطلب الثاني: الوصية الثانية

{ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }

ذكر صاحب القاموس المحيط بأن معنى النصيب هو الحظ[1]، وبناء على ما ورد في تفسير الآية من أن المقصود بها هو العمل في الدنيا للآخرة أو أن المقصود بها هو الاستمتاع برزق الله في الدنيا، فإنها تحتمل المعنيين، ومما يجب على كل مسلم أن يتزود لآخرته، وأن يسارع في عمل الطاعات والقربات لله عز وجل، فإن المرء يغادر الدنيا وليس معه سوى عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحشر: ١٨]، وقال {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ١١٠]، وقال عز من قائل {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٣٠].

وقال صلى الله عليه وسلم " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"[2]، وقال " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه "[3].

وعلى القول الثاني في تفسيرها، فلا حرج على المؤمن من الاستمتاع بما رزقه الله عز وجل في دنياه، فإن الله عز وجل قد أنعم على بني البشر بالنعم والطيبات ليستمتعوا بها ويشكروه عليها، من غير تبذير ولا تقتير، وفي هذا المعنى قال العلامة السعدي رحمه الله " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل واشرب، والبس وتصدق، من غير سرف ولا مخيلة" رواه أحمد وأبو داود. وعلقه البخاري. هذا الحديث مشتمل على استعمال المال في الأمور النافعة في الدين والدنيا، وتجنب الأمور الضارة. وذلك أن الله تعالى جعل المال قواما للعباد، به تقوم أحوالهم

(١) القاموس المحيط، (١٣٨).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٧٢٨٠).

(٣) سنن الترمذي، برقم (٢٤١٧).

الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية. وقد أرشد الله ورسوله فيه –استخراجا واستعمالا، وتدبيرا وتصريفا– إلى أحسن الطرق وأنفعها، وأحسنها عاقبة: حالا ومآلا.

أرشد فيه إلى السعي في تحصيله بالأسباب المباحة والنافعة، وأن يكون الطلب جميلا، لا كسل معه ولا فتور، ولا انهماك في تحصيله انهماكا يخل بحالة الإنسان، وأن يتجنب من المكاسب المحرمة والرديئة ثم إذا تحصل سعي الإنسان في حفظه واستعماله بالمعروف، بالأكل والشرب واللباس، والأمور المحتاج إليها، هو ومن يتصل به من زوجة وأولاد وغيرهم، من غير تقتير ولا تبذير.

وكذلك إذا أخرجه للغير فيخرجه في الطرق التي تنفعه، ويبقى له ثوابها وخيرها، كالصدقة على المحتاج من الأقارب والجيران ونحوهم، وكالإهداء والدعوات التي جرى العرف بها.

وكل ذلك معلق بعدم الإسراف، وقصد الفخر والخيلاء، كما قيده في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} [الفرقان:٦٧] . فهذا هو العدل في تدبير المال: أن يكون قواما بين رتبتي البخل والتبذير. وبذلك تقوم الأمور وتتم. وما سوى هذا فإثم وضرر، ونقص في العقل والحال، والله أعلم "[1].

(١) بهجة قلوب الأبرار، (٢١٣).

المطلب الثالث: الوصية الثالثة

{ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}

الإحسان: هو ضد الإساءة، والحسنة: ضد السيئة، كما ورد في القاموس المحيط[1]،

وقد ذكر الامام السعدي رحمه الله كلاما نفيسا في الاحسان، منه "الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الخالق، بأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. وهو الجد في القيام بحقوق الله على وجه النصح، والتكميل لها. وإحسان في حقوق الخلق.

وأصل الإحسان الواجب، أن تقوم بحقوقهم الواجبة، كالقيام ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإنصاف في جميع المعاملات، بإعطاء جميع ما عليك من الحقوق، كما أنك تأخذ مالك وافيا، قال تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم} [النساء: ٣٦] فأمر بالإحسان إلى جميع هؤلاء.

ويدخل في ذلك الإحسان إلى جميع نوع الإنسان، والإحسان إلى البهائم، حتى في الحالة التي تزهق فيها نفوسها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة". فمن استحق القتل لموجب قتل يضرب عنقه بالسيف، من دون تغرير ولا تمثيل.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" أي: هيئة الذبح وصفته. ولهذا قال: "وليحد أحدكم شفرته" أي: سكينه: "وليرح ذبيحته" فإذا كان العبد مأمورا بالإحسان إلى من استحق القتل من الآدميين، وبإحسان ذبحة ما يراد ذبحه من الحيوان. فكيف بغير هذه الحالة؟ واعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجه عليك من الحقوق.

---

(١) القاموس المحيط، (١١٨٩).

والثاني: إحسان مستحب. وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدني، أو مالي، أو علمي، أو توجيه لخير ديني، أو مصلحة دنيوية، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان. وكل ما أزال عنهم ما يكرهون. ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان.

ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قصة البغي التي سقت الكلب الشديد العطش بخفيها من البئر، وأن الله شكر لها وغفر لها. قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لنا في البهائم أجرا قال: في كل كبد حرى أجر".

فالإحسان: هو بذل جميع المنافع من أي نوع كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسن إليهم، وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

ومن أجل أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل. قال تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم} [فصلت:٣٤-٣٥]

ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن:٦٠] {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس:٢٦] {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة} [الزمر:١٠] ، {إن رحمت الله قريب من المحسنين} [الأعراف: ٥٦] أي: المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

والله تعالى يوجب على عباده العدل من الإحسان، ويندبهم إلى زيادة الفضل منه. وقال تعالى في المعاملة: {ولا تنسوا الفضل بينكم} [البقرة:٢٣٧] أي: اجعلوا للفضل والإحسان موضعا من معاملاتكم. ولا تستقصوا في جميع الحقوق، بل يسروا ولا تعسروا، وتسامحوا في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء. ومن ألزم نفسه هذا المعروف، نال خيرا كثيرا، وإحسانا كبيرا. والله أعلم."[1].

ومن أقوال السلف الصالح رحمهم الله عن الإحسان:

(١)بهجة قلوب الأبرار، (١٤١).

قال ابن عيينة: (سئل علي رضي الله عنه عن قول الله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} [النحل: ٩٠] فقال: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل).

وقرأ الحسن البصري هذه الآية {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} [النحل: ٩٠] الآية ثم وقف (فقال إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئا من طاعة الله عز وجل إلا جمعه ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئا إلا جمعه).

وقال ابن القيم: (مفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده).

وقال أيضا: (فإن الإحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه فالجبن ترك الإحسان بالبدن والبخل ترك الإحسان بالمال).

وقال في موضع آخر: (ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإحسان؛ وهي لب الإيمان وروحه وكماله وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها وكل ما قيل من أول الكتاب إلى هاهنا فهو من الإحسان).

وقال رجل لبعض السلاطين: (أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت القدرة بين يديه؛ فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق)[1].

ومن فوائد الاحسان:

١. للإحسان ثمرة عظيمة تتجلى في تماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتهلكة ووقايته من الآفات الاجتماعية الناجمة عن الخلل الاقتصادي.

٢. الإحسان هو المقياس الذي يقاس به نجاح الإنسان في علاقته بالحياة – وهي علاقة ابتلاء.

٣. المحسن يكون في معية الله عز وجل، ومن كان الله معه فإنه لا يخاف بأسا ولا رهقا.

٤. المحسن يكتسب بإحسانه محبة الله عز وجل.

(١)نقلا عن كتاب موسوعة الأخلاق الاسلامية.

٥. إذا أحب الله العبد جعله محبوبا من الناس، وعلى ذلك فالمحسنون أحباء للناس يلتفون حولهم ويدافعون عنهم إذا أحدق بهم الخطر.

٦. للمحسنين أجر عظيم في الآخرة حيث يكونون في مأمن من الخوف والحزن.

٧. من ثمرات الإحسان التمكين في الأرض.

٨. المحسن قريب من رحمة الله عز وجل.

إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

المطلب الرابع: الوصية الرابعة

{ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}

الفساد في اللغة: ضد الصلاح، والمفسدة هي ضد المصلحة[1]، وفي الاصطلاح: الإفساد: هو جعل الشيء فاسدا خارجا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعا به، وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح[2].

إن الإفساد في الأرض أمر يجب التحذير منه والتنبه له، لأنه أمر مخالف لدعوة الأنبياء والرسل -عليهم السلام- الذين جاءوا بالإصلاح في الأرض، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله -عز وجل-، جاءوا ليسعدوا الناس، ولينشروا الخير بينهم، والفلاح والصلاح، وإن الإفساد في الأرض له ضرر عظيم على البلاد والعباد، وحتى على الحيوانات، والبر والبحر، كل يتضرر من إفساد العباد في الأرض، لذا جاءت الآيات في كتاب الله -عز وجل- بالتحذير من الإفساد في الأرض، قال سبحانه: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا} [سورة الأعراف : الآية ٥٦]، ذكر ابن القيم عند حديثه عن هذه الآية " قال أكثر المفسرين: "لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} وقال عطية في الآية: "ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم"، وقال غير واحد من السلف: "إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر" وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله هو أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهي عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

---

(١)القاموس المحيط، (٣٠٦).

(٢)الكليات، (١٥٤).

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلا وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم." [1]،

وقال تعالى حكاية عن المنافقين {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: ٢٠٥، ٢٠٦]، وذكر القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية " قوله تعالى: والله لا يحب الفساد قال العباس بن الفضل: الفساد هو الخراب. وقال سعيد بن المسيب: قطع الدراهم من الفساد في الأرض. وقال عطاء: إن رجلا كان يقال له عطاء بن منبه أحرم في جبة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزعها. قال قتادة قلت لعطاء: إنا كنا نسمع أن يشقها، فقال عطاء: إن الله لا يحب الفساد. قلت: والآية بعمومها تعم كل فساد كان في أرض أو مال أو دين، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. قيل: معنى لا يحب الفساد أي لا يحبه من أهل الصلاح، أو لا يحبه دينا. ويحتمل أن يكون المعنى لا يأمر به، والله أعلم." [2]، وقال شيخ المفسرين الامام الطبري رحمة الله عليه " إنّ الله تبارك وتعالى وَصَف هذا المنافقَ بأنه إذا تولى مدبرًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمِل في أرض الله بالفساد. وقد يدخل في "الإفساد" جميع المعاصي، وذلك أن العمل بالمعاصي إفسادٌ في الأرض، فلم يخصص الله وصفه ببعض معاني "الإفساد" دون بعض. وجائزٌ أن يكون ذلك الإفساد منه كان بمعنى قطع الطريق، وجائز أن يكون غير ذلك. وأيّ ذلك كان منه فقد كان إفسادًا في الأرض، لأن ذلك منه لله عز وجل معصية. غير أن الأشبه بظاهر التنزيل أن يكون كان يقطع الطريقَ ويُخيف السبيل. لأن الله تعالى ذكره وصَفه في سياق الآية بأنه" سَعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل"، وذلك بفعل مخيف السبيل، أشبهُ منه بفعل قَطَّاع الرحم." [3].

(١)بدائع الفوائد، (١٤/٣).

(٢)الجامع لأحكام القرآن، (١٨/٣).

(٣)جامع البيان، (٢٣٩/٤).

ومن صور الافساد في الأرض الشرك بالله والبدع، ونشر المنكرات والدعوة إليها، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله، وزعزعة الأمن، وإثارة الفتن والنعرات، والسعي إلى الفرقة والتحزب بين المسلمين، والسعي إلى تحرير النساء من شريعة الله عز وجل، إلى غير ذلك مما نرجو الله أن يحفظ الأمة من شره، إنه ولي ذلك والقادر عليه،

خاتمـــــــة

وهكذا، بعد أن عشت في رحاب الآية الكريمة، وما حوته من الوصايا النفيسة، من وجوب الإقبال على طاعة الله، وبذل كل ما يملك الانسان من الطاقات والقدرات في ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ومن أهمية الحرص على امتثال أوامر الله جل وعلا في كل أمور الحياة، ومن مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والاحسان إلى خلقه، والابتعاد عن كل ما يغضبه، والابتعاد عن مخالفة أمره بعمارة الأرض واصلاحها، وأن كل من يتسبب بالفساد في الأرض بأي شكل من الأشكال يلقى عقابا شديدا من الخالق سبحانه وتعالى، لما في ذلك من الوبال على العباد والبلاد.

وفي الختام.. أسأل الله العلي القدير أن يحفظ بلاد المسلمين من كل شر وسوء، وأن يوفق ولاة أمورهم لما يحب ويرضى، وأن يرزقهم البطانة الصالحة، وأن يرد عباده إليه ردا جميلا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، عبد الكريم بن رسمي الدريني، مكتبة الرشد.

٣. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة.

٥. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

٦. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة.

٧. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى، أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.

٨. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

٩. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.

١٠. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، مصر.

١١. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادى، مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة.

١٢. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت.

١٤. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٥. موسوعة الأخلاق الإسلامية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت.

الفهرس

شكر وتقدير ٢

مقدمـــــة ٣

المبحث الأول: تفسير الآية وما ورد فيها..... ٤

المبحث الثاني: في ظلال الآية... ..... ٨

المطلب الأول: الوصية الأولى ٩

المطلب الثاني: الوصية الثانية ١٢

المطلب الثالث: الوصية الثالثة ١٤

المطلب الرابع: الوصية الرابعة ١٨

خاتمـــــة ٢١

قائمة المراجع ٢٢

الفهرس..... ٢٤